من صور الحياة فى دمشق

فى صحن الجامع الأموى . . .

للأستاذ على الطنطاوى

فى أمسيّةٍ طائقةٍ (من صيف سنة ٤٨٩هـ) خرج الناس — على عادتهم — إلى صحن المسجد الأموى ، فبسطوا فيه البُسُط ، وأسرجوا السُّرُج ، حتى (كاد المسجد يقطُر ذهباً ، ويشتعل لهباً) ، وأقبلوا عليه زُرافات ووحداناً ، يقضون بالصلاة حقّ الله عليهم ، وبالاجتماع والتعاون حقّ بعضهم على بعض ، ويعودون بثواب الله ، واطمئنان النفس ، وراحة البال

وليس أشهى إلى النفس ، ولا أحلى فى العين ، من صحن الأموى فى ليالى الصيف ؛ وإن المرء ليُطوّف ما يُطوّف ، ويتنشق عبير الأزهار ، ويسمع تغريد الأطيار ، ويصعد الجبال تتفجر منها العيون ، ويدخل الجنان تجرى من تحتها الأنهار ، ثم يعود إلى الأموى فيراه أجمل من ذلك كلّه ، ويجد فى نفسه حين يجلس فيه هزة طرب ، ونفحة أُنس ، لا يجدها فى شئ من ذاك . . .

وكانت عشية ريّحةً ، تنسم نسَماناً منعشاً ، فامتلأ المسجد بالناس وهم بين متوضئ يخلع رداءه فيلقى به على بلاط المسجد الأبيض الناعم ؛ ويسرع إلى قبة الماء ، وهى (فى وسط الصحن) وهى صغيرة مثمنة ، من رخام عجيب ، محكم الالصاق ، قائمة على أربع سوار من الرخام الناصع . وتحتها شباك حديد فى وسطه أنبوب نحاسى ، يميج الماء إلى علو ، فيرتفع ثم ينثنى كأنه قضيب (لجين) [1] وقد زينت جوانبها بالصابيح

ومصلٍّ يبتغى جماعة فلا يلبث حتى يجدها [1] فيقوم فى الصف خاشعاً ، يشغله جلال الله الذى يقف بين يديه ، عن الدنيا التى خلفها وراء ظهره . . .

وجالس إلى حلقة من هذه الحلقات الكثيرة يستمع إلى محدث أو فقيه أو واعظ ، أو ينصت لقارئ ، أو يذكر الله مع الذاكرين ، أو مستند إلى اسطوانة من الأساطين ، أو محتب تحت رواق من الأروقة ، يقرأ فى مصحف ، أو ينظر فى كتاب ، أو يسبح على أصابعه ، أو يتفكر فى شأن من الشئون ، أو ينتظر الصلاة فينعم بجمال المسجد ، ورقة النسيم ، ويكون من انتظاره الصلاة كأنه فى صلاة . . .

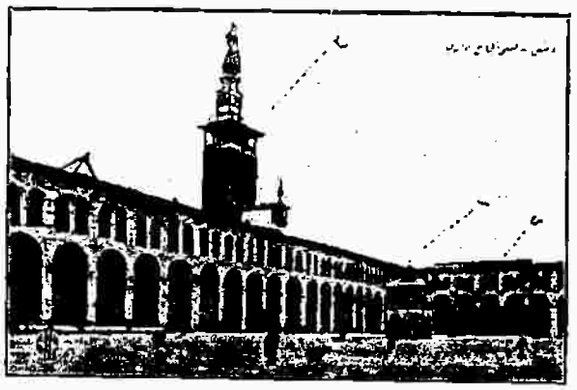

صحن الجامع الاموى : (١) القبة المسماة بالغباية وتحتها بركة الماء — (٢) قبة الساعات شرقى المسجد حيال المشهد الحسينى — (٣) منارة العروس (التى يؤذن فيها جماعة من المؤذنين ، وإنما يؤذن فى المنارات الأخرى مؤذن واحد)

وكان حيال قبة زين العابدين (قبة الساعات) فى شرقى المسجد ، رجل رثّ الثياب ، ماعليه إلا مرق مُرَدَّمه ، وخلقان بالية . يرنو بعينه إلى الناس تارة ، وينظر إلى المسجد أخرى ، فيقرأ فيه تاريخاً جليلاً ، يقرؤه فى هذه القبة الباذخة ، قبة النسر ، وهى (من أعجب مبانى الدنيا ، ومن أى جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ، ذاهبة فى الهواء ، منيفة على جميع مبانى البلد) [2] (وليس فى دمشق شئ أعلى ولا أبهى منظراً منها) [3]

(١) هذا الوصف لابن بطوطة ، وقد زارها فى آخر الربع الأول من القرن الثامن ، وفوق البركة اليوم سدة جميلة قد يجلس فيها المؤذنون ، قائمة على أربعة أركان وأربع سوار من الرخام ؛ وقد أجرى إلى هذه البركة ماء الفيجة ، وهو ماء غاية فى العذوبة واللذة . ينبع من قرية الفيجة (وهى من دمشق على عشرين كيلاً) وعلى الينبوع آثار بناء نظم من أبنية الرومان . وأول من جر هذا الماء إلى دمشق ناظم باشا رحمه الله ، أحد ولاة العثمانيين ، فأجراه فى الطرقات فى أنابيب ، ثم جر قسم أكبر من الماء فى قناة تحت فى الصخر ، وأدخل البيوت والمساجد وكان تمام هذا المشروع الكبير متذعاً عين

(١) ومن نعم الله على الأموى أنه (إلى يوم الناس هذا) لا يخلو من صلاة قائمة من أذان الظهر إلى أن يغلق المسجد أبوابه ، فلا تنقضى جماعة حتى تشرع أخرى

(٢) ابن بطوطة

(٣) ياقوت . قلت : ولا تزال إلى اليوم كما وصفاها على ما استحدث فى دمشق من بنايات عالية ، فيها ما هو بست طبقات وما هو بسبع . . . وهى بجانب القبة كالطفل بجانب الرجل ، وتحت هذه القبة يجلس المحدث الأكبر فى البلد ، وآخر من جلس تحتها البدر الحسنى مد الله فى أجله ورزقه حسناته

وهذه المنارة العالية التي يسميها الناس « منارة عيسى » لما جاء في الحديث أن عيسى عليه السلام ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق ، ويعجب من سموقها وارتفاعها . وهذه المنارة الغربية التي بناها المسلمون ، فأجادوا بنيانها ، ووضعوا فيها العجائب من براعة الزخرف ، ودقة النحت ، والضبط والاحكام . والمنارة الشمالية (منارة العروس) وقد ازّينت وأوقدت فيها المصابيح ، وقام في شرفتها المطلة على الصحن[1] «المؤقت» ليعلن دخول العشاء

* * *

منظر الاموي من الجهة الجنوبية : (١) قبة النسر — (٢) منارة عيسى (٣) المنارة الغربية — (٤) منارة العروس

ودخل المسجد قرويّ له مسألة . فسأل عن مجلس المفتين حتى دُلّ عليه عند قبة عائشة[2] فجاء فعرض عليهم مسألته ، فلم يجد عند واحد منهم جوابها . فذهب يدور على الفقهاء والمحدّثين يسألهم ، فلم يفز منهم بطائل ، فيئس منهم وهمّ بالخروج من المسجد . . . والفقير ينظر اليه ، ويعجب من حاله وحالهم .

(١) هذه الشرفة مخصصة اليوم للبسيط الذي تعرف به الأوقات ، وكان الذي صنع البسيط الشيخ علاء الدين علي بن ابراهيم الفلكي المشهور بابن الشاطر المتوفى سنة ٧٧٧ هـ ، فطرأ عليه خلل سنة ١٢٩٣هـ فصنع الشيخ محمد الطنطاوي المصري الأزهري نزيل دمشق (وهو جد أبي) بسيطاً غيره ، وحسبه على الأفق الحقيقي ، وزاد فيه توس الباقي للفجر ، وأنزل القديم وجعل هذا مكانه في يوم مشهود ، وهو فيها إلى الآن ، قال في (الحدائق) : وهو (أي البسيط) موضوع شريف لا نظير له تفرد به الطنطاوي بعد ابن الشاطر

(٢) وهي غرفة عالية غربي المسجد ليس لها إلا باب صغير من الحديد تقوم على ثمانية أعمدة كبيرة من الحجر وفوقها قبة ، ولا طريق اليها الا على سلم ينصب حيال الباب ، وكنا نتحدث ونحن أطفال أن فيها كنزاً حتى فتحها الألمان — كما أذكر — في الحرب العامة . واستخرجوا منها طائفة من الكتب والمصاحف القديمة . ولا أحسبها تحوي الآن شيئاً له خطر

٢٧ ٤

وعنّ عليه أن ينصرف آيساً ، فأشار اليه . فلما جاءه قال : اعرض عليّ مسألتك . . .

فضحك القرويّ ، وصاح : أنظروا ياقوم إلى هذا المجنون ! يزعم أنه يجيبني عن مسألتي ، وقد أعجزت المفتين والفقهاء وأصحاب الحديث ! فأقبل الناس على الصوت ، وطفقوا يتكلمون ، فقال قائل : دعْهُ فانه مجنون .. وقائل : لا عليك أن تسأله فلعلّ عنده علماً ... وقائل : سَلهُ واحمل جوابه إلى المفتين ، فانظر ماهم قائلون ؟

ثم سكتوا ، وسكت كلّ من في المسجد ، وانقطعت أصوات القراء والمدرّسين والذاكرين ، ولم يبق فيهم متكلم ، لأنها قد تكلمت فوق رؤوسهم النبوّة ، وسمعوا : (الله أكبر..) تدوّي في نواحي المسجد ، تهبط عليهم من المآذن كأنما هي هابطة من السماء ، فيها روعة الوحي ، وجلال الدّين ، وجمال الايمان . . . فتقوضت المجالس ، ورُصّت الصفوف ، وتحاذت المناكب ، وقال الامام : الله أكبر . . . فاتت الدنيا في نفوسهم وانمحت منها الشهوات ، وطمست فيها الميول ؛ لأنه مهما يكن من كبير فـ . . . الله أكبر ! ولا إله إلا الله !

منظر الحرم من الداخل : ويبدو فيه ركنان من الأركان الأربعة الهائلة التي تحمل القبة وتحتها يجلس المحدث الأكبر — وتبدو سدة المؤذنين رقم (١) وسدة الأمير أو الحاكم رقم (٢) وباب المقصورة التي يجلس فيها الخطيب ، وقد اتخذها معاوية وكان لها باب (لا تزال آثاره واضحة) يؤدي إلى قصر الخضراء الذي كان وراء الجامع القبلي

فلما قضيت الصـــلاة ، عادوا إلى القروي ، فقالوا له : اذهب فسَلْ صاحبك . فذهب إليه ، فقال :

ياهذا ، زعمت أنك قادر على الجواب ، فهل أنت على قولك ؟

قال : أستعين بالله

قال : وقد أعجزتَ المفتين وحيّرتهم ، أفأنت تستطيع أن تجيب عليها ؟

قال : أستعين بالله

قال : هي كذا وكذا . . . قال الجواب كيت وكيت . . .

وابتدر الفقير الباب :

بعض المناظر الباقية من الفسيفساء ، وهي على الجدار الغربي
خارج باب البريد

وحفّ الناس بالفروي ، فقالوا : هل أجابك ؟ بم أجابك ؟ قل لنا عماذا أجابك ؟

فقال : وما أنا بقائل لكم حرفاً حتى ألقى المفتين ، وأسرع وأسرع معه الناس الى المفتين ، وقد عادوا إلى مجلسهم : فقال : أرأيتم ذلك الفقير ؟ قالوا : نعم . قال : قد أجابني عن مسألتي

فضحكوا من جفائه وجهالته ، وقالوا : بم أجابك ؟

قال : بكذا وكذا

فلما سمعوه أخذ منهم الجدّ مأخذه ، ونظر بعضهم إلى بعض وكلهم مشدوه حائر لا يدري مم يعجب : أمن كثرة علم الرجل مع رثاثة هيئته . أم من رثاثة هيئته مع كثرة علمه ، ثم انتبهوا ، فقالوا : ويحكم ، أدركوا الرجل ، فان له لشأناً ، وما نظنه إلا آية من آيات الله جاءت ترينا حقيقة العلم ، وسموّ الفقر ، وجلال التواضع . . . أدركوا الرجل !

فقالوا : قد خرج

قالوا : أوليس فيكم من يعرفه ؟

فقال رجل من القوم : والله ما رأيناه إلا في السميصاتية (١) وقد نزلها منذ أيام ، فكان ينظف كنفها ومراحيضها ، ويتخذ مجلسه على الباب . حتى أذنوا له بالدخول . وما رأيناه إلا عاكفاً على صلاة أو مشتغلا بتسبيح ، ولم يكلم أحداً !

قال المفتون : ويحكم ، قوموا بنا اليه . . .

فلما دخلوا عليه ، قالوا له : من أنت ؟

قال : رجل من الناس

قالوا : قد سمعنا جوابك ، وإنا نسألك بالله الذي لا إله إلا هو إلا ما أخبرتنا من أنت

قال : إنا لله وإنا اليه راجعون . . . أمَا وقد أقسمتم ، فأنا أبو حامد الغزالي

فصاحوا : حجة الأسلام ! وانكبوا على يديه يقبلونهما ، ويسألونه أن يعقد لهم مجلساً في الغد . ثم انصرفوا

* * *

فلما كان الغد نظروا فاذا . . الشيخ قد فارق دمشق ! (٢)

دمشق — علي الطنطاوي

(١) الحاقاه السميصاتية وراء جدار الأموي الشمالي حيال الحديقة التي فيها اليوم قبر صلاح الدين الأيوبي ، وهي قديمة . قالوا : إنها كانت منزل عمر بن عبد العزيز . وقد أنشئت في السنين الأخيرة انشاء جديداً لتكون مدرسة نظامية لتدريس العلوم الاسلامية ، فضاع المشروع بين تسويف الحكام ونسيان الشعب . وانتهى بها الأمر بأن احتلها جماعة التجانيين عنوة ... وجعلوها معقلا من معاقل التجانية بدمشق . والمشهور اليوم بأن اسمها (الشميصانية) بالشين

(٢) أنظر طبقات السبكي جزء (٤) صفحة (١٠٤)